قصة قصيرة

قصة: جزاء السعي

أ.د. مجيب الرحمن *

في أحد أحياء المدينة القديمة، مدينة تشانداباد، حيث تتشابك الأزقة الضيقة كأوردة الجسم، وتتآكل جدران المنازل تحت وطأة الزمن، اختلطت أصوات الباعة المتجولين برائحة الخبز الساخن المنبعثة من أفران الطين، كما اختلطت الروائح المنبعثة من مياه المجارير برائحة اللحوم المشوية في المطاعم، هناك، بين الجدران المتواضعة، وُلد ريحان، شاب نحيف البنية، مع روح متوقدة بالعزيمة. نشأ في كنف أب بائع جوال يكسب قوت أهله ببيع الخضار والفواكه على العربة المتجولة، وأم تتحدى الفجر كل يوم لتصنع الخبز وتبيعه، ليس فقط لسد الرمق، بل لتضمن لأولادها فرصة تعليم قد تنتشلهم من قعر الفقر.

كان ريحان يحمل حلمه كدرع يقيه قسوة الواقع. يجلس تحت ضوء مصباح خافت، يراجع دروسه بينما يعض على كسرة خبز ويرتشف الماء البارد. في الصباح الباكر بعد الفجر كان يذهب إلى كُتّاب الحي ليتعلم قراءة القرآن، ويتعلم الدروس العربية، وبعد ساعتين من الدروس الدينية، كان يذهب إلى المدرسة العصرية، وفي طريقه إلى المدرسة، كان يمر بشاه روخ، ابن التاجر الثري، الذي يقف أمام قصره الفاخر، يرمق ريحان بنظرة مزيج من السخرية والاستغراب. كانا يدرسان معا في المدرسة، لكن عالميهما كانا مختلفين: ريحان يسعى ليبني مستقبله، وشاه روخ يرى في التعليم عبئًا لا داعي له، مرددًا:

"المال هو كل شيء، والشهادات مجرد ورق لا يُشبع جائعًا."

لم تقتصر الفجوة بينهما على الجانب المادي فحسب، بل كانت هاوية تفصل بين قيمهما وتطلعاتهما. رأى ريحان في العلم مفتاحًا للانعتاق والتحرر، بينما اعتبره شاه روخ ترفًا لا يليق بحياة الرفاهية التي وُلد فيها. كان ريحان يؤمن أن العمل هو وسيلة التقدم والنماء، مستندًا إلى قوله

* أستاذ بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو – نيودلهي

تعالى: "ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى"، في حين كان شاه روخ يرى العمل شأنًا يخص العمال والخدم من أمثال ريحان، لا أبناء الطبقة الراقية مثله.

وعندما بلغ ريحان الصف السادس، وتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة، أدرك بعمق مدى الجهد الذي يبذله والداه. كانا يكدّان لتأمين لقمة العيش للأسرة أولًا، ولضمان تعليم أبنائهما ثانيًا. في تلك اللحظة، عقد العزم على مساعدتهما بما يستطيع. قرر أن يعمل بعد ساعات الدراسة، فاتجه إلى فرن الطوب، حيث كان يحمل الطوب على رأسه وينقله من مكان إلى آخر. كان يجني من هذا العمل خمسين روبية يوميًا، مبلغًا يكفي لتغطية نفقات دراسته، بل ويتبقى منه ما يعطيه لوالده لينفقه على إخوته الصغار.

ذات يوم، مرّ شاه روخ بسيارته الفاخرة برفقة والده قرب فرن الطوب الذي يقع على مقربة من الشارع. لمح ريحان وهو يحمل الطوب على رأسه، فأشار إلى والده أن يوقف السيارة. نزل شاه روخ، وبدأ يهزأ بريحان قائلًا: "هذا مكانك الطبيعي، فكيف تجرؤ أن تكون زميلي في المدرسة؟" ثم التفت إلى والده وقال بنبرة متعالية: "يا أبي، لن أعود إلى مدرسة يدرس فيها أمثال ريحان، كيف يجلس معي في صف واحد؟" وبالفعل، امتنع شاه روخ عن الذهاب إلى المدرسة بانتظام، فلم يحضر سوى أيام الامتحانات، حيث نجح بفضل الغش والرشاوى التي مهدت له الطريق.

مرّت السنوات، وأثمر جهد ريحان. تفوق في الثانوية العامة، وتصدرت صورته عناوين الصحف:

"ابن البائع الجوّال يتفوّق في امتحان الثانوية العامة على مستوى الولاية."

ألهمته هذه اللحظة ليحلم بما هو أبعد، وجذب انتباه مالك فرن الطوب الذي تكفل بدراسته الجامعية. وفي العاصمة، واصل ريحان ليله بنهاره، فلم يكن همه فقط نجاحه في الدراسة، بل إعالة إخوانه أيضا كانت تهمه وتشغل باله، فمع بذله قصارى الجهد في دراسة بكالوريوس الهندسة الحاسوبية، كان يعمل ساعتين في مطعم متواضع ليرسل ما يجني من العمل إلى والده لإعانة أشقائه، ويدرس ليلًا، متمسكًا بإيمانه أن العسر لا يدوم، متسلّحًا بآية تتردد في قلبه:

"فإن مع العسر يسرًا."، وإن الله لن يضيع أجر من أحسن عملا.

في تلك الأثناء، واجه ريحان اختبارات الحياة القاسية. توفي والده بعد صراع مع المرض، ثم أصيبت والدته بضعف أقعدها عن العمل. تضاعفت أعباؤه، لكنه لم يستسلم. كان يرسل ما يستطيع من ماله القليل لأمه، ويواصل سعيه، مدركًا أن مسؤوليته لا تقتصر على نفسه، بل تمتد إلى من ربّاه.

على النقيض، ظل شاه روخ يعيش في فقاعة من الترف. أيامه مليئة بالحفلات والمظاهر، وثروة أبيه كانت درعه الوحيد. لم يتعلم مهارة، ولم يسعَ لفهم السوق أو إدارة الأموال. كان يؤمن أن الثروة أبدية، غافلًا عن تقلبات الزمن.

تخرج ريحان من الجامعة بامتياز، وحصل على منحة للدراسة في الخارج. عاد بعد سنوات حاملًا شهادة عليا وخبرة في التكنولوجيا، لكنه لم ينسَ جذوره. أسس شركة ناشئة في حيه القديم، واختار أن يوظف شباب الحي العاطلين، مؤمنًا أن النجاح الحقيقي ليس فرديًا، بل يرتقي بمجتمع بأكمله. لم يكن همه الربح فقط، بل خلق فرص لمن حُرموا منها، ونشر ثقافة العمل والاعتماد على الذات.

في المقابل، بدأت إمبراطورية والد شاه روخ تتهاوى. سوء الإدارة، والتهاون في مواجهة تحديات السوق، أغرقا الأسرة في الديون. توفي والده تحت ضغط الخسائر، وبيع القصر الفخم لتسديد جزء من الدين. وجد شاه روخ نفسه فجأة بلا مأوى ولا مهارة، مجرد ظل لماضٍ زائل.

في صباح كئيب، جلس شاه روخ في مقهى شعبي، يتصفح إعلانات الوظائف بيد مرتعشة. وقعت عيناه على إعلان لشركة تبحث عن موظف إداري، وعندما قرأ اسم الشركة، تجمد: "شركة ريحان للتكنولوجيا." تردد طويلًا، لكنه اضطر لمواجهة مصيره. تقدم للوظيفة، وفي المقابلة، استقبله ريحان بابتسامة هادئة:

"مرحبًا يا شاه روخ، تفضل."

جلس شاه روخ، وعيناه تكتمان خجلًا عميقًا، ثم قال:

"كنت مخطئًا في الماضي. لم أقدر قيمة الوقت ولا العلم. الحياة عاقبتني، وأنا الآن أبحث عن بداية جديدة."

لم يوبخه ريحان، بل ردّ بإنسانية:

"هنا، لا ننظر إلى ماضيك، بل إلى ما تستطيع تقديمه. الفرصة موجودة، لكنها تتطلب جدية ومثابرة."

بدأ شاه روخ العمل تحت إشراف ريحان، وتدريجيًا، تعلم ليس فقط مهارات الإدارة، بل قيمًا أعمق: الصبر، والتواضع، وأهمية العمل الجماعي. أدرك أن الثروة قد تُورثُ، لكن الكرامة تُكتسب.

أما ريحان، فقد أصبح رمزًا في مجتمعه. إنّه يُستدعى للحديث في مؤتمرات وورش عمل، يشارك قصته ليلهم الشباب، ويختم كلامه بعبارة تحمل خلاصة تجربته:

"الفقر ليس نهاية، والغنى ليس ضمانًا. النجاح طريق واحد: العمل الجادُّ، والإيمان بالنفس، وخدمة من حولك."

..... ❖❖❖❖❖ .....